وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ
بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ
وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ
فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ
إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾
أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ
كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ
يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

[١٠٧] وإذا أصابك الله أيها النبي بشيء فيه ضرر فاعلم أنه لا يكشف الضر إلا هو، وإذا أرادك الله بخير فاعلم أنه لا يردُّ فضلَ الله أحد من الناس، فله الأمر كله؛ فإنه جل وعلا يصيب بالخير والضر من يشاء من عباده، وهو الغفور لذنوب من تاب وأناب من عباده، الرحيم بمن آمن به وأطاعه واتبع هدي نبيه ﷺ.

[١٠٨] قل يانبي الله للناس جميعًا: لقد جاءكم رسول الله بالقرآن الذي فيه هدايتكم وإرشادكم إلىٰ الحق وهو الإسلام؛ فمن اهتدىٰ وصار علىٰ الطريق المستقيم فإن فائدة ذلك تعود علىٰ نفسه، وكذلك من ضل وانحرف عن الحق فإن ضلاله يعود علىٰ نفسه، واعلموا أني لست بحافظ لكم ولست موكلًا بإلزامكم حتىٰ تكونوا مؤمنين، وإنما الحفيظ والوكيل هو الله جل في علاه.

[١٠٩] ختم جل وعلا السورة بأمر النبي ﷺ أن يتبع ما يوحىٰ إليه من ربه، وأن يعمل به، ثم أمره بالصبر علىٰ طاعة الله، وعن معصيته، وعلىٰ أذىٰ الناس، وأن يحتسب ذلك عند الله؛ حتىٰ يحكم الله ما هو مقدَّر عنده لك ولهم، واعلم أنه جل وعلا صاحب العدل الكامل الذي لا معقب له، والمقصود بالأمر أمته والدعاة من بعده.

سورة هود

سورة هود مكية وآياتها ثلاث وعشرون ومائة آية.

لقد سألتُ والدي رحمه الله -وكان يُدَرِّس التفسير- عن قول الرسول ﷺ لما سُئل عن الشيب الذي به، فقال: «**شيبتني هود وأخواتها**»[1]، فسألته: ما الذي أراده الرسول ﷺ بذلك؟ وما الذي أهمه وأزعجه في هذه السورة؟ فقال رحمه الله: أغلب الأقوال أنها قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود:١١٢]، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود:٦٠]، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود:٦٨]، وغيرها من الآيات. فَأَمْرُهُ ﷺ بالاستقامة هو ومن معه مع ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ومآل الأمم المهلكة المبعدة أثرت في نفسه ﷺ.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

ثم أخبر جل وعلا أن هذا الكتاب وهو القرآن الكريم حُبكت ونظِمت آياته نظمًا متناسبًا لا يعتريه نقص ولا خلل، ثم قُسِّمت آياته إلىٰ مواضيع عدة، شيء يتعلق بالعباد، وشيء يتعلق بالمعبود والإخلاص له، وشيء يتعلق بالتكاليف الشرعية كالحج والزكاة وأمور البيع والشراء والمعاملات العامة، وكل الأمور التي يحتاجها الخلق في حياتهم وبعد مماتهم، واعلموا أن ذلك كله من الله الحكيم في شرعه، الخبير بشؤون عباده.

[٢] بدأ جل وعلا بذكر بعض هذه التفاصيل؛ فبدأ بذكر العبادة؛ لأنها أهم الأعمال؛ فأمر العباد أن لا يعبدوا إلا الله وحده لا شريك له؛ ولذلك كانت دعوة جميع الرسل هي توحيد الله، واعلموا أيها الناس أنني لكم نذير أنذركم من العواقب السيئة، وبشير أبشركم بالنتائج الحسنة المفرحة للأعمال الصالحة، وأهمها توحيد الألوهية وهو جعل العبادة خالصة لله وحده.

[٣] ثم أمر جل وعلا العباد بكثرة الاستغفار والتوبة إليه، ووعد من امتثل أمره بالمتاع الحسن في الدنيا، أما في الآخرة فيثيب المؤمنين بحسب درجاتهم؛ فمنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات، ومنهم الظالم لنفسه؛ فإنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملًا، وإن تولوا وتركوا الهدىٰ فإن الله من محبته لهدايتهم يخوفهم من العذاب الشديد السرمدي في جهنم يوم القيامة، ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب.

[٤] واعلموا أيها الناس أن عودتكم ورجوعكم إلىٰ الله جميعًا بعد موتكم يوم البعث، فيجازيكم علىٰ أعمالكم، والله علىٰ كل شيء قدير، ومن ذلك إحياؤكم وبعثكم بعد الموت، ثم محاسبتكم ومجازاتكم.

[٥] يخبر جل وعلا عن بعض أفعال المشركين، وأنهم يطأطؤون رؤوسهم ويميلونها علىٰ صدورهم يظنون بذلك أنهم أخفوا أنفسهم وحجبوها عن الله!!، وهذا من أعظم ما يكون من الجهل والغباء، وقد ردَّ الله عليهم وبين خطأهم في هذا الظن؛ أنهم لو غطوا أجسادهم بثيابهم لَعَلِمَ كل ما يعملون ويسرون من الأقوال والأعمال، وهم علىٰ هذا الحال؛ بل أبعد من ذلك، وهو كونه سبحانه يعلم ما في صدورهم من النيّات والضمائر والأسرار، وما يخطر في نفوسهم مما لم يتفوهوا به.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٨٠٤)، وأبو يعلىٰ في مسنده (٨٨٠).

۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ
مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ
عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن
قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ
أُمَّةٖ مَّعْدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ
مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ
﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةٗ ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ
لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ
مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ
﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم
مَّغْفِرَةٞ وَأَجْرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ
وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ
مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

[٦] يخبر جل وعلا أنه ما من شيء يدب على الأرض إلا وقد تكفل الله له برزقه المناسب له، وتكفل له بتيسير طريق الحصول على ذلك الرزق، وجميع هذه الدواب يعلم جل وعلا مكان إقامتها واستقرارها ومأواها، ويعلم مكانها الذي تعيش فيه وتموت فيه، وقد كتب الله ذلك في كتاب واضح بيِّن عنده، وهو اللوح المحفوظ.

[٧] يخبر جل وعلا أنه خلق السماوات والأرض وما فيهن في ستة أيام، وقد فصّل سبحانه ذلك في سورة فصلت فأخبر أنه خلق السماوات في يومين، وخلق الأرض في يومين، وخلق ما على الأرض مما تقتضيه حياة البشر والحيوان في يومين، قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهٗا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت:٩-١٢]، وهذه الأيام ليست من أيام الدنيا المعروفة بأربعة وعشرين ساعة؛ لأنها قبل إيجاد الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧].
ثم أخبر سبحانه أنَّ عرشه كان قبل خلق السماوات والأرض على الماء، وهذا دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السماوات والأرض، وأخبر أنَّ خلق السماوات والأرض ليختبر عباده أيهم أحسن له طاعة وعملًا، ومعلوم أن العمل لا يقبل عند الله إلا إذا تحقق فيه شرطان: أن يكون خالصًا لله، وموافقًا لِمَا كان عليه رسول الله ﷺ. ولئن قلت يانبي الله لهؤلاء المشركين: إن الله سوف يبعثكم بعد موتكم؛ لقالوا لك مكذبين: ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا إلا سحر واضح بيّن.

[٨] واعلموا أيها المشركون لو أن الله فضلًا منه وكرمًا أخر عنكم العذاب إلى مدة معدودة من الدهر لقلتم سخرية واستهزاءً: ما الذي يحبسه، أي: ما الذي يمنعه من النزول؟ وهذا دليل على تكذيبهم لهذا العذاب، فاعلموا أيها الكفار إذا نزل بكم العذاب فإنه لا يستطيع أن يصرفه عنكم صارف، ولا يدفعه دافع، وسوف يحيط بكم العذاب الذي كنتم تستهزئون به من كل جانب، وحينئذ لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل.
وقوله: ﴿أُمَّةٖ﴾: معناها هنا: المدة أو الحين أو الزمن، وتأتي أيضًا بمعنى الجماعة، ولها تصاريف أخرى يوضحها السياق.

[٩] ثم وصف جل وعلا حال الإنسان بأنه إذا رزق خيرًا ونعمة وبركة؛ ثم نزعها الله منه بسبب عدم شكرها، فإنه يؤوس كفور، أي: شديد اليأس من رحمة الله، وهذا وصف للبشر كلهم، وقيل: المراد بالإنسان هو الكافر، وهو أبلغ وصف لطبيعة الإنسان.

[١٠] ثم وصف جل وعلا حال هذا الإنسان إذا أسبغ الله عليه النعم، وأغناه بعد الفقر، وشفاه بعد المرض، وأمّنه بعد الخوف؛ أنه يقول: ذهبت المصائب وزال أثرها عني، ولا ينسب الفضل في ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يشكره؛ بل يقول: هذه حال الدهر ويفرح فرحًا مبالغًا فيه، ويبطر بالنعم، ويتعالى على الناس ويتطاول عليهم ظنًّا منه أن ذلك الخير سيدوم له بلا انقطاع!

[١١] واستثنى جل وعلا منهم فئة قليلة وهم الصابرون العاملون للصالحات؛ فإنهم مكرمون لا يحصل منهم شيء مما ذكر، ولهم أجرٌ كبير في الآخرة؛ لأنهم ينسبون الفضل لله ويشكرونه على النعم ويصبرون على المصائب ويحتسبون أجرهم على الله.

[١٢] يسلي جل وعلا نبيه ﷺ ويواسيه فيخاطبه قائلًا: لعلك يامحمد تارك تبليغ بعض ما أُنزل إليك، ولعلك يامحمد ضائق صدرك بسبب ما تراه من المشركين من تكذيب وتعنت وإصرار على الكفر، وبسبب اقتراحهم بعض الآيات عنادًا وكفرًا؛ كاقتراحهم أن يُنزَل عليك مال كثير، أو يُنزَل عليك ملك من السماء يصدقك في رسالتك، فلا عليك يانبي الله، ولا يضيق صدرك بمثل هذا؛ ما عليك إلا تبليغ ما أُمرت به، وتحذيرهم من الشرك والكفر والمعاصي، ولست مطالبًا بهدايتهم جبرًا، فالله سبحانه هو الرقيب الحفيظ وهو الهادي وهو على كل شيء وكيل، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وسيجازيهم عليها بما يستحقون.

[١٣] يقول المشركون: بل إنك يامحمد افتريت هذا القرآن، فقل لهم علىٰ سبيل التحدي: إن كان الأمر كما تقولون فأتوا بعشر سور مثل هذا القرآن مفتريات أي: مثله في البلاغة وحسن السبك، واستنجدوا بالبلغاء والفصحاء أيًّا كانوا من خلق الله ليعينوكم علىٰ ذلك، إن كنتم صادقين في دعواكم، ولم يفعلوا لعجزهم عن ذلك. وقوله: ﴿أَمْ﴾، هنا منقطعة، بمعنىٰ: بل، والهمزة للتوبيخ والإنكار بأنه افتراه.

[١٤] ثم قال جل في علاه: فإن لم يستجيبوا لكم أيها المؤمنون لما تدعونهم إليه، ولم يقوموا لهذا التحدِّي؛ لِعَجْزِهم عن ذلك وعدم استطاعتهم علىٰ الإطلاق؛ فليعلم الجميع أن هذا القرآن منزَّلٌ من عند الله، وأن البشر لا يستطيعون الإتيان بمثله، وليعلم الجميع أنه لا إله إلا الله، وأنه وحده هو المستحق للألوهية، والإفراد بالعبادة، فهل أنتم مستسلمون لله، منقادون لدينه ولرسوله ﷺ!.

[١٥] واعلموا أيها الناس أن من آثر الحياة الدنيا ومتعها علىٰ الآخرة نعطيهم مرادهم وما قُسِمَ لهم من ثواب أعمالهم في الحياة الدنيا، وهم لا يُنقصون شيئًا مما قدَّره الله لهم، وهذا الإطلاق قُيِّد في قوله تعالىٰ في سورة الإسراء: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨]، أي: نعطيه من متاعها ما نريد مما كُتب في اللوح المحفوظ.

[١٦] ثم يخبر جل وعلا عن جزاء هؤلاء: أن جزاءهم في الآخرة هو نار جهنم، لا جزاء لهم غير ذلك، وقد خاب كيدهم، وبطل عملهم؛ لأنه لم يكن لوجه الله تعالىٰ، ولأنه لم يتوفر فيه شروط قبول الأعمال.

[١٧] ثم قال سبحانه: أفمن كان علىٰ يقين وبصيرة وحجة من الله جل وعلا بالوحي الذي أنزله الله علىٰ محمد ﷺ، وكان معه دليل آخر وحجة ثانية وهي الفطرة السليمة والعقل الصحيح، وقيل: إن الدليل الثاني هو محمد عليه السلام، ثم شاهد ودليل ثالث قبل ذلك، وهي التوراة التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ عليه السلام إمامًا للناس يأتمون بها في أمر الدين والحياة، ورحمة لهم من عذاب الله إذا آمنوا بها واتبعوها، وتشهد للقرآن وتصدقه، أفمن كان معه هذه البينات والأدلة كمن هو في الظلمات همه الحياة الدنيا وزينتها؟!! لا يستوون عند الله، إنَّ الذين معهم هذه البينات والأدلة يصدقون بالنبي ﷺ، ويؤمنون بالقرآن حقيقة، ومن يكفر بهذا القرآن ويجحده من الطوائف والأحزاب من أهل مكة وغيرهم فجزاؤه نار جهنم خالدًا فيها، فلا تَكُ يانبي الله في شكٍّ من القرآن، ولا تَكُ في شكٍّ من أن النار موعدٌ وجزاءٌ لمن يكفر به، فالدين والقرآن من عند الله، وهو الحق، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بذلك ولا يؤمنون به، مع ظهور الدلائل والحجج والبراهين.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ
وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾
فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا
لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا
ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ
كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ
بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ
رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ
أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

ومعلوم أنه ﷺ لم يشك في أمر القرآن، وكونه من عند الله سبحانه بعد ما شهدت بذلك الأدلة والحجج والبراهين، وإنما يؤمر ويُنهىٰ ليبلغ أمته.

[١٨] يخبر جل وعلا أنه لا أحد أشدُّ ظلمًا ممن يختلق علىٰ الله الكذب، باتخاذ شريك معه أو وصفه بما لا يليق بجلاله أو اختلاق شيء ونسبته إليه، وغير ذلك؛ فهذا من أشدِّ الناس ظلمًا علىٰ الإطلاق، وأصحاب هذه الجريمة سيقفون بين يدي الله جل وعلا يوم العرض عليه، وسيسألهم ويحاسبهم علىٰ افترائهم الكذب، وحينها سيُدلي الأشهاد -من الملائكة والرسل والعلماء- بشهادتهم علىٰ هؤلاء المجرمين، قائلين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ألا بعدًا لهم وطردًا من رحمة الله وجنته.

[١٩] ثم بين جل وعلا بعض صفات هؤلاء المجرمين: فأخبر أنهم يصرفون أنفسهم، ويمنعون غيرهم من الدخول في دين الله، ويصفون سبيل الله بالاعوجاج تنفيرًا للناس عنها، وهم مع ذلك لا يصدقون بالآخرة ولا بالبعث والجزاء.

أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ
ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ
فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ
هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ
وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٢٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾
أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾
فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا
وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ
وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ
عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

[٢٠] بين جل وعلا حقيقة هؤلاء الكفار ومقدارهم، وأنهم لا يفوتون الله هربًا، فهو سبحانه مدركهم ومعذبهم متىٰ أراد، وبين سبحانه أنه ما كان لهؤلاء الكفار أيضًا من أنصار يدفعون عنهم ما يكرهون من عذاب ونحوه، أو يجلبون لهم ما يحبون، ولهم في الآخرة عذاب مضاعف مُغَلَّظ، بسبب افترائهم علىٰ الله الكذب، وتركهم للإسلام وصدهم غيرهم عنه، وهؤلاء الكفار لتفريطهم وإعراضهم كانوا لا يرغبون أن يسمعوا القرآن سماعًا ينتفعون به، وكانوا أيضًا لا يبصرون آيات الله في كَوْنِهِ الدالةِ علىٰ وحدانيته إبصار تفكر واعتبار.

[٢١] يخبر جل وعلا عن عاقبة هؤلاء الكفار، وأنهم خسروا أنفسهم بالشرك والصد عن سبيل الله، وذلك بأن فوتوا علىٰ أنفسهم الإيمان والثواب، فاستحقوا العذاب والعقاب، وحينها قد ذهب وغاب عنهم ما كانوا يدعون من الآلهة الباطلة، ويزعمون أنهم شركاء لله.

[٢٢] واعلموا أنه لا محالة ولا شك أن الكفار هم أشد النَّاس خسارة في الآخرة؛ لأنهم إضافةً إلىٰ جريمة كفرهم فقد كانوا يصدّون النَّاس عن الإسلام.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾ تأتي في القرآن بمعنىٰ: حقًّا، وتحمل معنىٰ القسم.

[٢٣] يخبر جل وعلا عن صفات جليلة من صفات المؤمنين، وما أعد الله لمن تحلىٰ بهذه الصفات، وهي: الإيمان والاعتراف بالله جل وعلا، وتصديق ذلك بالعمل بالجوارح بفعل الأوامر وترك النواهي، والإخبات إلىٰ الله، أي: الذل والخضوع والاستكانة والخشوع لله جل وعلا مع محبته وخوفه ورجائه؛ فمن جمع تلك الصفات فهو من أهل الجنة خالدين فيها لا يخرجون منها أبدًا.

[٢٤] ثم ضرب سبحانه وتعالىٰ مثلًا لفريق أهل الإيمان السعداء، ومثلًا لفريق الكفار الأشقياء، فمثل الكفار الأشقياء كمثل رجل أعمىٰ لا يبصر، وأصم لا يسمع، فالكفار الأشقياء قد عمّوا أبصارهم عن الحق، وصمّوا آذانهم عن الهدىٰ، ومثل المؤمنين السعداء، كرجل مبصر يسمع، وهم قد أبصروا نور الإسلام فآمنوا، وسمعوا داعي الله فأجابوا، فهل يستوي هؤلاء الفريقان حالًا وصفةً؟!!، والجواب: لا، أفلا تتفكرون في ذلك وتتدبرون فيه؟!

[٢٥] يخبر جل وعلا أنه أرسل نوحًا عليه السلام إلىٰ قومه لدعوتهم إلىٰ التوحيد، وتحذيرهم من الشرك والكفر، فدعاهم لذلك وبيَّن لهم وقال: إني منذر لكم من سخط الله تعالىٰ، ومبيِّن لكم بيانًا يزول به كل إشكال.

[٢٦] ثم إن نوح عليه السلام دعا قومه إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، ثم قال لهم: واعلموا ياقوم إذا لم تطيعوني وتتبعوني في ما آمركم به فإني أخاف عليكم يوم القيامة عذابًا أليمًا موجعًا في النار.

[٢٧] فلما دعا نوح عليه السلام قومه إلىٰ التوحيد، أجابه أشراف قومه وكبراؤهم: اعلم يا نوح أنك بشر مثلُنا، وعليه فنحن لا نعترف بنبوتك، ثم إن الذين اتبعوك من قومنا هم الجهلة والفقراء، ومن لا حسب لهم ولا نسب، وليس لهم رأي ولا عقل راجح؛ اتبعوك مباشرة دون تفكير ولا نظر، ثم لا نرىٰ لكم مزيَّةً علينا -في عقل أو جاهٍ أو مالٍ- حتىٰ نتبعكم وننقاد لكم؛ وفوق هذا نظنكم ونعتقِد أنكم كاذبون فيما تقولون وتدَّعون.

[٢٨] ثم قال نوح عليه السلام لقومه مجيبًا لهم: لقد أتيتكم بالحق الواضح من ربي وربكم، وقد اختصني بالنبوة رحمة منه فاستكبرتم وأخذتكم العزة بالإثم فأقفلتم آذانكم؛ فهل نجبركم علىٰ قبول الرسالة التي هي عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه؟، وأنتم كارهون لذلك.

والاستفهام في قوله: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾، هنا إنكاري، أي: ما كان لي ذلك وأنتم كارهون لها، والهمزة للاستفهام والمضارع، والكاف هو المفعول الأول، والهاء هي المفعول الثاني، والواو حرف للإشباع للفصل بين الفاعل الأول والفاعل الثاني، وفاعله ضمير مستتر.

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

[٢٩] ثم إن نوح عليه السلام رد علىٰ قومه وأخبرهم أنه لا يريد منهم مالًا مقابل دعوته إياهم ومقابل نصحه لهم، وبين لهم أن الذي سيجازيه علىٰ ذلك ويكافئه هو الله جل في علاه، ثم قال نوح عليه السلام لهم: واعلموا ياقوم أنني لست بطارد الذين آمنوا من الفقراء، فإن ذلك لا يحق ولا ينبغي لي؛ فإنهم سيلقون الله جل وعلا وهو مثيبهم ومجازيهم علىٰ إيمانهم بي وتصديقهم لي، ولكني أراكم أنتم قومًا تجهلون، ومن جهلكم: أمركم لي بطردهم، ورفضكم طاعتي بدعوىٰ أن هؤلاء الفقراء من أتباعي!!

[٣٠] ثم قال نوح عليه السلام: ويا قوم من يحول بيني وبين عقاب الله ويمنعني منه إن عصيته، وأطعتكم في طرد هؤلاء المؤمنين!! أفلا تذكَّرون وتتفكَّرون في حقيقة أمركم وفعلكم!!

[٣١] ولا زال نوح عليه السلام يجيب قومه ويحاورهم ويبين لهم، فقال لهم: لا أقول لكم: إن بيدي مفاتيح خزائن الله أُعطي من أشاء وأمنع من أشاء، ولا أدعي كذلك معرفة ما لم يقع في المستقبل من علم الغيب فأخبركم بشيء من ذلك، ولا أدَّعي أني مَلَكٌ من الملائكة -وذلك ردٌّ عليهم لما قالوا: ما نراك إلا بشرًا-، غاية أمري أني بشر مثلكم أرسلني الله إليكم، ولا أقول للذين تحتقرونهم وتزدرونهم من الفقراء الذين آمنوا بي وصدقوني: إن الله لن يعطيهم الثواب الجزيل علىٰ إيمانهم؛ بل مرجع الجميع إلىٰ الله الذي يعلم ما تُخفي كل نفس وما تُبدي، فإني لو فعلت ذلك أكون من الظالمين المتجاوزين لحدودي، وأكون بذلك ظلمت نفسي وظلمت غيري.

[٣٢] ولما لم يكن لقوم نوح حجة مقنعة يتكلموا بها، قالوا: يانوح إنك بالغت وأكثرت علينا في سرد الحجج ومهما تأتنا به من حجة فلن نؤمن بما جئت به؛ فعجِّل لنا العذاب -الذي تخوفنا به- بإنزاله علينا إن كنت من الصادقين في دعوتك لنا، وفي زعمك أنك رسول من عند الله.

[٣٣] فأجابهم نوح عليه السلام بأن الله وحده هو الذي يأتيكم بالعذاب في الوقت الذي يريده هو -عاجلًا أو آجلًا- متىٰ شاء ذلك، وما أنتم ياقوم بهاربين من عقاب الله في الوقت الذي يحدده هو، ولا أنتم قادرون علىٰ منع عذاب الله.

[٣٤] ثم قال نوح عليه السلام: واعلموا ياقوم أن نصحي لكم وبذلي ما أستطيع لإبلاغكم لن ينفعكم؛ إن كان الله يريد لكم البقاء عل ما اخترتم لأنفسكم من الغواية والضلال؛ بسبب ردكم للحق وعنادكم؛ فإنَّ أمركم إلىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧]، وإرادة الله غالبة، وهو ربكم وجعلكم مختارين، وإليه ترجعون يوم القيامة فيحاسبكم علىٰ ما اخترتم، ويجازيكم عليه.

[٣٥] ومع هذا كله فإن قوم نوح ردوا قائلين: إن نوحًا افترىٰ علىٰ الله هذا القول واختلقه من قِبَلِ نفسه!؟ فأمر سبحانه نبيه نوح عليه السلام أن يقول لهم: اعلموا ياقوم إن كنت افتريته فعليَّ وزر ذلك، وأتحمل عاقبته، وإن كنت صادقًا وأنتم المفترون فعليكم إثم ذلك ووزره، وتتحملون جرمكم، وأنا بريء من ذلك.

وقد قيل: إن هذه الآية -معترضة- في قصة نوح عليه السلام، والخطاب فيها لمحمد ﷺ؛ والمعنىٰ: إذا قال لك يا نبي الله كفار مكة: إنك افتريت القرآن واختلقته -ومن ضمن ذلك قصة نوح مع قومه-، فقل لهم: إن كنت من المفترين فأنا أتحمل وزري، وعاقبة أمري، وإن كنتم أنتم المفترين فأنا بريء منكم ومن أفعالكم، وهذا يدل علىٰ أن دعوة الأنبياء واحدة.

[٣٦] وبعد أن يئس نوح عليه السلام من دعوة قومه، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح:٢٦]، فأخبره جل وعلا رحمة ولطفًا به أنه لن يؤمن من قومك إلا مَنْ قد آمن من قبل، فلا تحزن يانوح عليهم ولا يضيق صدرك بهم ذرعًا بسبب أعمالهم السيئة، واعلم أن حسابهم وجزاءهم علىٰ الله.

[٣٧] ثم أمر جل وعلا نبيه نوحًا أن يصنع سفينةً تحت بصره وبمرأىٰ منه كيْ يلهمه كيفية صناعتها، ثم أمره سبحانه أن لا يسأل ولا يطلب منه إنجاء الظالمين، وهذا إعلام لنوح أن لا يشفع لأحد منهم مثل ابنه؛ لأن هؤلاء قد حُكِم عليهم بالغرق بالطوفان.

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ
قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ
﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ
وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ * وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟
فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ
وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ
مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى
وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ
بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى
مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾

[٣٨] يخبر جل وعلا عن امتثال نوح لأمره بصناعة السفينة، وابتدائه في ذلك، ولمّا مرَّ عليه قومه ورأوه وهو يصنعها أخذوا يسخرون منه ويستهزؤون به ويقولون: كان يدَّعي النبوة فصار نجارًا، كيف يصنع سفينة في البر؟ وكيف يصنع سفينة ولم يُعْرف بالنجارة! فكان رد نوح علىٰ هذا الاستهزاء: فكما تسخرون منَّا اليوم يا قوم، فإنا سنسخر منكم حين يأتيكم العذاب ويعلوكم ماء الطوفان.

[٣٩] ثم قال لهم نوح: وسوف تعلمون ياقوم في المستقبل من يأتيه عذاب يخزيه في الدنيا - وهو الغرق -، ثم بعد ذلك يحل به وينزل عليه عذاب مقيم دائم لا ينقطع، - وهو نار جهنم في الآخرة -.

[٤٠] ولقد سئم قوم نوح من استمرار نوح في دعوتهم وإلحاحه عليهم، كما وصف جل وعلا حاله معهم في سورة كاملة هي سورة نوح؛ فقال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٥ - ٩]، وأنهم هم الذين طلبوا أن تحل بهم العقوبة سخرية واستهزاء، فقالوا: ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود:٣٢].

ولكن نوح عليه السلام استمر في صنع السفينة التي أَمَرَهُ الله بصنعها حتىٰ إذا وقع أَمْرُ الله، وحان إهلاك المشركين من قومه، وبدأ نبع الماء بقوة من التنور الذي يخبز فيه للدلالة علىٰ مجيء العذاب، وهو الطوفان الذي عمَّهم واستأصلهم عن بكرة أبيهم؛ إلا الثلّة القليلة التي آمنت معه، وأَمَرَ جل وعلا نوحًا أن يحمل في السفينة التي صنعها من كل نوع من أنواع الحيوانات ذكرًا وأنثىٰ، ويحمل فيها جميع أهل بيته إلا من لم يؤمن بدعوته؛ كابنه وزوجته، ويحمل فيها أيضًا كل من آمن معه من قومه، ومعلوم أنه لم يؤمن معه إلا القليل؛ مع أنه بذل جهده في دعوتهم، طول المدة والمقام فيهم.

[٤١] وقال نوح لمن آمن معه: ابتدِؤوا ركوب السفينة بذكر اسم الله، فهي باسم الله تبدأ سيرها فوق الطوفان الذي يغرق الأرض، وهي باسم الله ترسو وتقف علىٰ الجبل الجودي بعد غرق وهلاك الظالمين، إن ربي لغفور: كثير المغفرة لمن استغفر وتاب، ورحيم: كثير الرحمة لمن رجع وأناب، ومن رحمته بنا أن نجانا من القوم الظالمين.

[٤٢] ثم وصف جل وعلا جريان السفينة لمَّا جاء الطوفان، وأنها تمخر الماء والأمواج من حولها عالية جدًّا كعلو الجبال!!، وَلَمَحَ نوح عليه السلام ابنه في مكان معزول فناداه بعاطفة الأبوة: يابني أسلم لله، واركب معنا لتنجو وتسلم مع المؤمنين، ولا تكن مع الكافرين فتغرق وتهلك معهم، وأنسته عاطفة الأبوة قول الله له: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٧].

[٤٣] فرد الابن العاق فقال: إني سأصعد وأحتمي بجبل عالٍ من الماء فلا يدركني الغرق، فأجابه نوح عليه السلام: إنه لن ينجو أحد من عذاب الله، ولا ينفع في ذلك جبل ولا غيره، لا تنفع إلا رحمة الله، وهي لمن آمن وأسلم، ثم انقطع الحوار بين نوح وابنه بموجة عالية بعدها غرق الولد العاق، وهلك مع الهالكين.

[٤٤] ثم أمر جل وعلا الأرض أن تشرب ما عليها من الماء، وأمر السماء أن تقطع ما ينزل منها من الماء، فامتثلتا، فنضب الماء ونقص حتىٰ جفت الأرض، وقُضي أمر الله بهلاك الظالمين وغرقهم، ونجاة المؤمنين وفرحهم، ثم توقفت السفينة ورست علىٰ الجودي - وهو جبل معروف في الموصل -، وقيل: بعدًا وهلاكًا وطردًا من رحمة الله للقوم المتجاوزين حدودهم، الذين لم يؤمنوا بما جاءت به الرسل.

[٤٥] ثم دعا نوح عليه السلام ربَّه جل وعلا قائلًا: ياربِّ إن ابني من جملة أهلي، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، ولن تُخلف ما وعدتني به، فوعدك الحق -وقد ظن نوح أن الوعد بالنجاة لعموم أهله من آمن ومن لم يؤمن-، وأنت يارب أحكم الحاكمين وأعلمهم وأعدلهم، وقد فوضت أمري إليك.

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا
تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ
ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ
وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ
وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾
وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا
مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

[٤٦] فقال جل وعلا مجيبًا لنوح: اعلم يانوح أن ابنك هذا ليس من أهلك الذين وَعَدْتُكَ بنجاتهم؛ لأنه عمل غير صالح؛ بل إنه ممن سبق عليه القول بسبب كفره؛ ولذا فإن الوعد لا يشمله.

قال الدكتور جمال فاضل السامرائي: إن ابنك هذا كله عمل غير صالح، وإنه كتلة فساد.

وقال بعض المفسرين: إنه ليس من أهلك الناجين؛ لأنه غارق في الكفر، وإن دعاءك لنجاته عمل غير صالح.

لذا نهىٰ سبحانه نوحًا أن يطلب منه أمرًا لا علم له به، وقال له: إني أعظك أن تكون من الجاهلين فتسألني ما ليس لك به علم؛ لأنه نسي قول الله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود:٤٠]، أي: من أهله.

ويؤخذ من هذه الآية أنه لا يجوز الدعاء بالجنة للكافر الذي لا يؤمن بالله ورسوله ﷺ، ولكن يجوز أن تدعو الله أن يهديه، والواجب أن تبذل الجهود في دعوته للإسلام.

[٤٧] فقال نوح عليه السلام مبادرًا ومعتذرًا ونادمًا: رب أعوذ وألتجئ وأحتمي بك يا إلهي أن أسألك بعد الآن ما ليس لي علم بصحته وجوازه، وإن لم تتداركني بمغفرة منك ورحمة لأكونن من الخاسرين في أعمالهم الذين لا ربح لهم ولا فلاح.

[٤٨] ثم نادىٰ جل وعلا علىٰ نوح وقال له -بعد أن جف الماء-: انزل إلىٰ الأرض بأمن منّا وتحيات وخيرات، ونعم ثابتة، عليك وعلىٰ من معك من المؤمنين وغيرهم من الأزواج التي حُملت في السفينة، واعلم يانوح أن هناك أممًا من ذريتك الذين نجوا معك في السفينة ستُمتَّع في الحياة الدنيا بالعيش والرزق فيها، ثم يكون مصيرهم العذاب الأليم الشديد الموجع في الآخرة بسبب كفرهم بأنبياء الله ورسله.

وكل الذين كانوا مع نوح في السفينة ماتوا ولم يتناسلوا، وكل الأمم التي تناسلت بعده هي من ذرية نوح عليه السلام، هكذا قال العلماء، ويؤيد قولهم قول الله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧].

[٤٩] ثم خاطب جل وعلا رسوله محمدًا ﷺ، وأخبره أن هذه القصة من أخبار الغيب السابقة التي ما كنت تعرفها أنت ولا قومك علىٰ هذا التفصيل، -ومجيئها بهذا التفصيل دليل علىٰ نبوتك ورسالتك، وأنك يوحىٰ إليك من الله-، فاصبر علىٰ ما تلاقيه من قومك من التكذيب والإعراض، فإن لك في صبر نوح عليه السلام علىٰ قومه قدوة وأُسوة، واعلم يانبي الله أن الفوز والعاقبة المحمودة الطيبة في الدارين للمتقين الذين يخافون الله ويخشونه، ولا يشركون به شيئًا.

[٥٠] يخبر جل وعلا أنه أرسل إلىٰ قوم عاد الذين سكنوا الأحقاف شرق الجزيرة العربية أخاهم في النسب هوًاد عليه السلام، يدعوهم إلىٰ التوحيد، وعبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وأخبرهم أنهم بعبادة غير الله مفترون كاذبون؛ لأن العبادة حق خالص لله.

[٥١] قال هود عليه السلام لقومه: يا قوم لا أطلب منكم علىٰ هذه الدعوة مالًا، إنما أجري وثوابي علىٰ ربي الذي خلقني وأرسلني إليكم، أفلا تعقلون؟! أفلا تميِّزون، فلو كان مطلبي مالًا وأجرًا منكم لكان من الممكن أن تتهموني.

[٥٢] ثم نصحهم هود عليه السلام قائلًا: يا قوم آمنوا بربكم، واطلبوا منه أن يغفر لكم ذنوبكم وإسرافكم علىٰ أنفسكم بالشرك والمعاصي، ثم توبوا إلىٰ ربكم وعودوا إليه بالتوحيد الذي هو أصل كلِّ خير، فإنكم إن فعلتم ذلك؛ أنزل الله عليكم المطر الصيب النافع فتخضر به أرضكم وينبت به زرعكم، ويستقيم حالكم، ويزيدكم الله قوة إلىٰ قوتكم وعزًّا إلىٰ عزِّكم، وأحذِّركم ياقوم أن تعرضوا عمّا دعوتكم إليه من التوحيد والإيمان؛ فتصبحوا بذلك مجرمين.

[٥٣] فقال له قومه عنادًا واستكبارًا: ياهود ما جئتنا ببينة وحجة واضحة ودليل قاطع علىٰ قولك حتىٰ نؤمن لك، ولهذا لن نترك عبادة آلهتنا اتباعًا لقولك: إنها لا تستحق العبادة، وما نحن لك بمصدقين، ولا برسالتك مقتنعين.

وقوله: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾، **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله**: إنهم كَذَبُوا بقولهم هذا؛ لأن هودًا جاءهم بعدد من الآيات والبينات؛ بل كذبهم الله بقوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، أي: إن عادًا جحدوا الآيات والبراهين والبينات التي جاء بها نبيهم هود، وهذا تكذيب من الله لهم بإنكارهم الآيات؛ والآيات تشمل المعجزات.

إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ
مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ
رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ
﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى
هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا
بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ * وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ
ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ
﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ
مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

[٥٤-٥٥] ثم قالوا علىٰ سبيل العناد والاستكبار: ما نقول إلا أن بعض آلهتنا قد أصابتك بخبال وجنون بسبب نهيك عن عبادتنا إياها، فأصبحت تهذي وتقول كلامًا غريبًا، فأجابهم عليه السلام قائلًا: إني أُشهد الله، وأُشهدكم أنتم وأوثانكم أني بريء من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، فَأَجْمِعُوا أمركم أنتم وآلهتكم المزعومة واطلبوا لي الضرر، وامكروا بي -إن استطعتم ذلك-، ولا تمهلوني، أي: أهلكوني إن استطعتم.

[٥٦] ثم قال لهم هود عليه السلام: إني اعتمدت علىٰ الله ربي وربكم وفوضت أمري إليه، وهو كافيني وحافظني وعاصمني من كيدكم، ثم اعلموا أنه ما من شيء يتحرك ويسكن إلا بإذن الله، وكل شيء تحت ملك الله وتصرفه وقهره سبحانه، فهو سبحانه علىٰ عدل وقسط وحكمة بالغة.

[٥٧] ثم ختم هود الحديث مع قومه فقال لهم مهددًا: فإن تتولوا وتعرضوا وتصروا علىٰ الكفر والعناد؛ فقد أَدَّيْتُ ما عليَّ من البلاغ والدعوة إلىٰ التوحيد والنهي عن الشرك، وبيَّنت لكم غاية البيان، وحيث لم تؤمنوا؛ فإن الله قادر أن يهلككم، ويستخلف في الأرض قومًا غيركم يعبدونه لا يشركون به شيئًا، ويكون ضرركم عائدًا علىٰ أنفسكم لا علىٰ غيركم، إن ربي علىٰ كل شيء حفيظ رقيب مهيمن، سيجازي كلًّا بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

[٥٨] ولكن قوم هود أصروا علىٰ كفرهم وعنادهم فكانت النتيجة ما ذكره المولىٰ عز وجل، حيث قال سبحانه: وحين جاء عذابنا -الذي لا يرد عن القوم المشركين-؛ نجينا هودًا عليه السلام ومن آمن معه بلطفٍ ورحمة منّا -لأنه لا نجاة لأحد إلا برحمة الله-، فنجاهم الله من الريح الصرصر العاتية التي دمرت كل شيء فأصبحوا لا يُرىٰ إلا مساكنهم، ونجيناهم في الآخرة أيضًا من عذاب غليظ شديد.

[٥٩] وفي نهاية قصة قوم هود مع نبيهم هود عليه السلام قال جل في علاه: وتلك هي قصة عاد -وهم قوم هود- مع نبيهم؛ فقد كفروا بآيات الله، وأصروا علىٰ الكفر، وكذَّبوا نبيهم هودًا عليه السلام، واتّبعوا أهواءهم وقادة الكفر والضلال فيهم، وأطاعوا كلَّ مستكبر علىٰ الله لا يتبع الحق ولا ينقاد إليه.

[٦٠] ولذلك كانت النتيجة ما أخبره عز وجل أن هؤلاء المشركين من قوم هود أُتبعوا لعنة وطردًا من رحمة الله، وذِكْرًا سيِّئًا في الدنيا، وفي يوم القيامة لا تنفك عنهم هذه اللعنة، وذلك لأنهم جحدوا بآيات ربهم، وجحدوا توحيده وإفراده بالعبادة، ألا فبعدًا لهم عن كل خير، وهلاكًا بيِّنًا لهم، فليتعظ بهم من بعدهم.

[٦١] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل إلىٰ قوم ثمود -الذين يسكنون الحِجْر بين المدينة والشام- أخاهم في النسب: صالحًا عليه السلام، يدعوهم إلىٰ التوحيد، وعبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه؛ فإنه سبحانه لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، ثم ذكّرهم صالح بأنه سبحانه هو الذي ابتدأ خلقكم من الأرض بخلق أبيكم آدم، ثم استخلفكم في الأرض من بعد قوم عاد وجعلكم من عُمَّارِها، فاطلبوا المغفرة من ربكم بأن يغفر لكم ذنوبكم وإسرافكم علىٰ أنفسكم بالشرك والمعاصي، ثم توبوا إلىٰ ربكم وعودوا إليه بالتوحيد الذي هو أصل كلِّ خير، فإن الله سبحانه وتعالىٰ قريب ممن دعاه، مجيب لمن طلب منه ورجاه.

[٦٢] فكان ردهم علىٰ دعوة التوحيد أن قالوا: ياصالح قد كنّا نؤمل فيك العقل والنفع، ونرجو أن تكون فينا سيِّدًا مُطاعًا قبل أن تقول هذا القول الذي نستنكره منك، ثم قالوا مُنكِرين: أتنهانا ياصالح عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا من قبل؟! فنحن في شكّ وتردد واضطراب من دعوتك إيانا عبادةَ الله وحده، وَتَرْكَ ما كان يعبد آباؤنا من قبل.

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي
مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي
غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ
فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ
عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا
نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ
خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧
كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا
بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨ وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ
سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٖ حَنِيذٖ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ
أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ
قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ
فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١

[٦٣] فقال لهم صالح عليه السلام: أخبروني ياقوم إذا كنت علىٰ بينة من الإيمان بربي ومعي حجة ظاهرة وبرهان قاطع يزيل ما لديكم من شكٍّ واضطراب، ثم مع ما آتاني الله ومنَّ به عليَّ من رسالة ونبوة، أفأترك كلَّ ذلك وأتَّبِعُكم؟! وإن فعلت ذلك فحينها من ينصرني من الله ويدفع عني عقابه وغضبه؟! فما تَزيدونني بتثبيطكم إياي إلا خسارة وتعرُّضًا لعقوبة الله جل وعلا.

[٦٤] ثم جاءهم صالح عليه السلام بآية وبمعجزة ظاهرة تدلّ علىٰ نبوته هم اقترحوها، وهي تلك الناقة التي خرجت من جوف الصخرة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم، وأمرهم أن يتركوها تأكل من أرض الله، وألا يقربوها بأي نوع من أنواع الإساءة من عَقْرٍ ونحوه، فإنهم إن فعلوا ذلك أخذهم الله بعذاب قريب.

[٦٥] ثم أخبر سبحانه أن قوم ثمود كذبوا نبيهم صالحًا عليه السلام وخالفوا أمره، واستهانوا به وعاندوه، وعقروا الناقة، فقال لهم صالح: استمتعوا بما بقي لكم في حياتكم خلال ثلاثة أيام، ثم يأتيكم العذاب ويحل بكم، وهذا وعْدٌ حق لا بد من وقوعه وتحققه.

[٦٦] فلما انتهت الثلاثة أيام وجاء أمر الله بنزول العذاب علىٰ قوم ثمود وهلاكهم، نجَّىٰ الله صالحًا والذين ءامنوا معه بلطف ورحمة منه سبحانه، وكذلك نجاهم الله من خزي يوم القيامة وفضيحته، واعلم يانبي الله أن ربك هو القوي القادر علىٰ كل شيء، العزيز الذي قهر وغلب كل شيء.

[٦٧] ثم أخبر جل في علاه أن هلاك قوم ثمود كان بالصيحة الشديدة التي أخذتهم بسبب ظلمهم وكفرهم وعنادهم؛ فَقُطِّعت قلوبهم؛ فأصبحوا في ديارهم خامدين لا حراك لهم.

[٦٨] ولشدة العذاب الذي نزل بقوم ثمود وسرعته أخبر سبحانه وتعالىٰ كأن هؤلاء القوم لما أخذهم العذاب لم يعيشوا في تلك الديار ولم يعمروها، ولم يهنأوا ويستمتعوا فيها، وإنما أصابهم ما أصابهم بسبب جحودهم وكفرهم بالله وآياته، ألا بعدًا لهم وشقاءً وطردًا من رحمة الله.

[٦٩] ثم ساق جل في علاه جانبًا من قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه؛ فأخبر سبحانه أن الملائكة جاءت لإبراهيم تبشره هو وزوجته بإسحاق، ومن بعد إسحاق يعقوب، وقد أتوه عليه السلام علىٰ صورة بشر، فسلموا عليه، فرد عليهم التحية، ثم ذهب بسرعة وأحضر عجلًا سمينًا حنيذًا إكرامًا لهم.

[٧٠] ولما رأىٰ إبراهيم عليه السلام أن ضيوفه لم يقدموا أيديهم للمائدة أخذته منهم رهبة وروعة؛ فطمأنوه وأخبروه أنهم رسل من رب العالمين، وأنهم أُرسلوا إلىٰ قوم لوط عليه السلام.

[٧١] ولمّا أخبر الملائكة إبراهيم عليه السلام بمهمتهم التي جاءوا من أجلها سمعت زوجته التي كانت واقفة ما قالوا؛ فضحكت استبشارًا بإهلاك قوم لوط، ثم بشَّروها بأنها ستلد ولدًا اسمه إسحاق ومن نسل إسحق يعقوب، فما كان منها إلا أن صكت وجهها، أي: لطمته فزعة من هذا الخبر العجيب، وقالت علىٰ سبيل الاستغراب: إنني عجوز عقيم، أي: لا ألد، كما ذكر ذلك سبحانه في قوله: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ [الذاريات:٢٩].

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا
لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾
إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ
قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا
جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا
يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾
قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ
﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟
يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا
مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

[٧٢] ولمّا سمعت زوجة إبراهيم عليه السلام ما قاله الملائكة لها لطمت وجهها، واستعجبت أن تحمل وتلد؛ لأنها تعدت سن اليأس، وأن زوجها رجل طاعن في السن، وقالت: إن هذا لأمر عجيب.

[٧٣] فأزال الملائكة عجبها وقالوا لها: أتعجبين من قدرة الله ولطفه ورحمته علىٰ الخُلَّص من عباده، رحمة الله وبركاته وسعادته عليكم يا أهل بيت إبراهيم، إنه جل وعلا محمود بإفضاله وإنعامه، وإنه ذو مجدٍ وثناء وكرم.

[٧٤] فلما ذهب عن إبراهيم عليه السلام الروع واطمأن من أنهم رسل الله وسمع بشارة الملائكة له بإسحاق ويعقوب، تذكر عليه السلام صديقة وابن أخيه لوطًا عليه السلام، فأخبرهم أن لوطًا ما زال معهم عندما أرادوا إهلاك قومه؛ فطمأنوه أنه لن يهلك معهم. وبعد أن أطمأن علىٰ ابن أخيه لوط عليه السلام أخذ يحاور الملائكة في قوم لوط لعلهم يعطونهم فرصة ليتوبوا؛ فأخبروه أن الأمر محسوم، فَأَمْرٌ وَاحِدٌ أَحْزَنَ إبراهيم عليه السلام وأفرح امرأته.

[٧٥] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن إبراهيم عليه السلام كثير التأوه والألم، منيب إلىٰ الله، ملتجئ إليه.

[٧٦] ثم قالت رسل الله من الملائكة لطفًا بنبيه إبراهيم: يا إبراهيم اترك مجادلتنا في إمهال عذاب الله وعقوبته علىٰ قوم لوط؛ فإنه قد جاء أمر الله، وحلَّ بهم وقت العذاب، وأن الأمر محسوم ولا مرد له، وأن أمر الله نافذ غير مردود عنهم ولا مدفوع.

[٧٧] ولمّا جاءت رسل الله من الملائكة للوط عليه السلام في صورة أضياف تضايق لذلك، واغتم وحزن حزنًا شديدًا، وقال هذا يوم شديد؛ وذلك لأنهم شباب بأحسن صورة؛ فخاف علىٰ أضيافه من قومه الذين يأتون الذكران من العالمين.

[٧٨] فما لبث أن علم قومه بأمر أضيافه فجاؤوا مسرعين مهرولين، طالبين الفاحشة من أضيافه – وهم قبل ذلك قد اعتادوا علىٰ هذه الفاحشة –، فقام لوط عليه السلام ناهيًا ومدافعًا فقال: هؤلاء بناتي –أي: النساء– فتزوجوهن فهن أطهر وأحلُّ وأنْزه لكم، فاتقوا الله وخافوا عقابه، ولا تذلوني وتهينوني في ضيفي، ألا يوجد منكم رجل واحد رشيد ينهاكم ويزجركم ويمنعكم من الفعل القبيح؟

[٧٩] فأجابوه بخسَّة ودناءةٍ قائلين: لقد علمت يالوط أنّا ليس لنا رغبة ولا حاجة بالنساء، وعلمت أنّا لا نريد إلا الرجال. وقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾، يوضح أن الناس إذا استمروا علىٰ ارتكاب المحرم استمرؤوه وصار حقًّا عندهم.

[٨٠] فعندها قال لوط عليه السلام: لو أن لي قبيلة تمنعني أو أنصارًا يقفون معي؛ لَمَنَعْتُكُم بالقوة ونكَّلت بكم، ولِمَا يعلم عليه السلام من فسوقهم نسي أن يأوي إلىٰ الركن الشديد، وهو أقوىٰ الأركان الذي لا يغلبه أحد، وهو الله جل في علاه.

[٨١] ولمّا رأىٰ الملائكة ما حل بنبي الله من همٍّ وضيق، جاء فرج الله للوط عليه السلام، ونطقت الملائكة، وأخبروه أنهم رسل الله، وأنهم جاؤوا لإهلاك هؤلاء المجرمين، وطمأنوه بأن هؤلاء المجرمين لن يستطيعوا فعل شيء يسوؤه، وأمروه بالخروج هو وأهله الذين آمنوا معه من هذه القرية الظالم أهلها، وأن يكون خروجهم في الليل، وأمروه ألا يلتفت أحد ممن سيخرج معه لكي لا يشاهد ما يروعهم ويحزنهم، واستثنوا زوجته من أهله لأنها كانت من القوم الكافرين، وأنه سيصيبها ما أصابهم من العذاب، وأن موعد إهلاكهم هو الصبح، وهو موعد قريب.

فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا
حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ
وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣ * وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ
شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ
وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ
وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤ وَيَٰقَوۡمِ
أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ
أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥ بَقِيَّتُ
ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم
بِحَفِيظٖ ٨٦ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ
مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ
لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ
عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقٗا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ
أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ
مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨

[٨٢] فلمّا جاء أمر الله بنزول العذاب فيهم وحلوله بهم؛ قلب الله ديارهم عليهم فجعل عالي القرية أسفلها بعد أن أمطرهم الله بحجارة من النار شديدة الحرارة متتابعة تُهْلك من أصابته.

[٨٣] وأخبر سبحانه أن هذه الحجارة: معلَّمة وموسومة عليها علامة العذاب والغضب، وقيل: عليها اسم من ستهلكه، وهي ليست من المتجاوزين حدودهم ببعيد، فليست بعيدة عمّن يعمل عمل قوم لوط، وليست بعيدة عن كفار قريش.

[٨٤] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل إلىٰ قبيلة مدين -وهو قوم يسكنون مدين في أدنىٰ فلسطين- أخاهم في النسب: شعيبًا عليه السلام، فدعاهم إلىٰ التوحيد، وعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، ثم بدأ ينهاهم عن خُلُقٍ سيءٍ كانوا قد اعتادوا عليه في التعامل في ما بينهم، وهو أنهم ينقصون المكيال والميزان؛ فنهاهم عن ذلك، وأمرهم أن يوفوا المكيال والميزان، وقال لهم: إني أراكم بخير ونعمة وسعة في أرزاقكم ووفرة في أولادكم، وإني ياقوم أخاف عليكم -إن بقيتم علىٰ الشرك وعلىٰ تطفيف المكيال والميزان- عذابًا يحيط بكم فيهلككم جميعًا، ولا ينجو منه أحد.

[٨٥] ثم كرر شعيب عليه السلام علىٰ قومه الأمر بإتمام المكيال والميزان بالعدل، ونهاهم عن نقص الناس حقوقهم وأموالهم، ثم نهاهم عن السعي في الأرض بالفساد.

[٨٦] ثم قال شعيب عليه السلام: واعلموا ياقوم إن ما تبقىٰ لكم بعد أن توفوا المكيال والميزان من الحلال خير لكم وأكثر بركة من التطفيف والبخس؛ إن كنتم تؤمنون بالله وتصدقون بما أرسلت به إليكم، واعلموا أني لست عليكم برقيب ولا بحسيب.

[٨٧] فأجابه قومه بتهكم وسخرية قائلين: ياشعيب أمحافظتك ومداومتك علىٰ صلاتك وعبادتك لربك جعلتك تنهانا أن نستمر في عبادة ما كان يعبد آباؤنا من قبل؟! وجعلتك تنهانا أن نتصرف في كسب أموالنا بالطريق التي تعودنا عليها؟! إنك ياشعيب لأنت الحليم الرشيد، ويقصدون عكس ذلك، أي: إنك لأنت السفيه الغويّ، وهذا من شدَّة كفرهم وعنادهم واستهزائهم بشعيب عليه السلام.

[٨٨] فأجابهم شعيب عليه السلام قائلًا: ياقوم أخبروني إن كنت علىٰ بينة ودليل قاطع وبرهان ساطع علىٰ صحة ما جئت به ودعوتكم إليه، مع ما رزقني الله به من الرزق الحسن من النبوة والحكمة ووفرة المال؛ أخبروني: هل أترك كل ذلك وأجاريكم وأتابعكم علىٰ باطلكم، ثم إني ياقوم لا مصلحة شخصية لي في نهيكم عن هذه الأفعال بحيث أقوم أنا بارتكابها؛ بل أنا أول المنتهين عن ما نهيتكم عنه، وما أريد من هذا كلّه إلا أن أصلح من شأنكم قدر ما أستطيع وقدر طاقتي، وما يحصل لي من التوفيق للهداية والرشد والصواب والخير، والبعد عن الغواية والخطأ والضلال والشر؛ إلا بالله تعالىٰ وحده، ومنحي إياه، لا حول لي ولا قوة إلا بالله، عليه اعتمدت في أموري كلها، وفوضت أمري إليه، وإليه أرجع وأتوب.

وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم
بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى
رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ
سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ
وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

[٨٩] ثم قال لهم شعيب: ويا قوم لا يحملنكم حب مخالفتي ومشاقتي ومعاندتي علىٰ الإصرار علىٰ ما أنتم عليه من الشرك والمعاصي، فيصيبكم بسبب ذلك من العذاب والهلاك ما أصاب الأمم المعاندة من قبلكم؛ كقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وما عذاب قوم لوط منكم ببعيد في الزمان ولا في المكان، فاعتبروا بذلك.

[٩٠] ثم قال لهم أيضًا: ويا قوم اطلبوا من الله أن يغفر لكم ذنوبكم، ثم توبوا وارجعوا وأنيبوا إليه واعملوا بطاعته، واحذروا معصيته، إن ربي رحيم بعباده وسعت رحمته كل شيء، ودود لمن تاب وأناب، فيقبل منه ويعفو عنه ويحبه.

[٩١] فقال له قومه: ياشعيب ما نفهم كثيرًا مما تحدثنا به لأنك تَحْمِلَنَا علىٰ أمور ليست مألوفة عندنا كالحساب والعذاب والبعث والنشور؛ مع أنهم قد فقهوا كل قول قاله لهم شعيب من النصائح والمواعظ، ولهذا سُمي شعيب بخطيب الأنبياء، ولمَّا أفحمهم بالحجج والبراهين ولم يجدوا جوابًا يقولونه؛ قالوا له: ياشعيب ما نفقه قولك وأنت مستضعف عندنا ولست من أهل الجاه والمال، ولولا مراعاة عشيرتك لقتلناك رجمًا بالحجارة، وما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع.

[٩٢] فأجابهم شعيب علىٰ وجه الاستغراب من منطقهم الفاسد قائلًا: ياقوم أجماعتي وقبيلتي وعشيرتي أعزّ وأكرم عليكم من الله؟ فراعيتم ذلك، ولم تراعوا حق الله؟! ونبذتم أمر الله كله بالتوحيد وفعل الطاعات ورميتموه وراء ظهوركم غير مبالين به ولا آبهين؟!

ثم قال لهم مُحذِّرًا: اعلموا أن الله محيط بجميع أعمالكم، مطَّلع عليها، لا تخفىٰ عليه خافية، وسوف يجازيكم عليها أتم الجزاء وأوفاه.

[٩٣] ولمّا لم يستجيبوا وأصروا علىٰ كفرهم وعنادهم قال مهدِّدًا لهم ومتوعِّدًا إياهم: ياقوم اعملوا قدر استطاعتكم علىٰ الإضرار بي، فإني عامل ومستمر علىٰ دعوة التوحيد وعلىٰ عبادتي؛ فسوف تعلمون من منَّا علىٰ الصواب والحق، وستعلمون من منَّا سينجو، ومن منَّا سيأتيه عذاب يخزيه ويذلّه ويفضحه، وتعلمون حينها مَن الصادق ومَن الكاذب، وانتظروا ياقوم ما سيحل بكم، إني معكم من المنتظرين.

[٩٤] ولمّا جاء أمر الله بهلاك قوم شعيب ونزول العذاب بهم، نجَّىٰ الله شعيبًا والذين ءامنوا معه برحمة وفضل ولطف منَّا، أمَّا الذين تجاوزا حدَّهم فأشركوا، ولم يؤمنوا، وتجاوزوا حدَّهم فأنقصوا المكيال والميزان، فأخذتهم الصيحة من السماء فخلعت قلوبهم، وأخذت أرواحهم، فبركوا علىٰ ركبهم جاثمين، وسقطوا - لا حراك لهم - ميِّتين.

[٩٥] يخبر جل وعلا عن حال مدين قوم شعيب بعد هلاكهم؛ كأنهم لم يقيموا في هذه البلاد ولم يعمروها، ولم يتمتّعوا فيها، ألا بعدًا لهم، وطردًا لهم من رحمة الله، كما أُبعدت وطُردت ثمود، والجامع بين هاتين الأمَّتيْن: الاشتراك في الكفر وتكذيب الرسل، ثم الاشتراك في النهاية، وهي العذاب، والطرد والإبعاد من رحمة الله.

[٩٦] ثم يخبر جل وعلا أنه أرسل نبيه موسىٰ عليه السلام بالآيات والمعجزات، والحجج الظاهرة البيِّنة التي تدل علىٰ صدق رسالته، وهي: الآيات التسع.

[٩٧] ثم بين سبحانه أنه أرسله إلىٰ فرعون وأشراف قومه -إذْ غيرهم من قومهم تبعٌ لهم-، فكفر فرعون بموسىٰ عليه السلام، وتابعه قومه علىٰ ذلك، ولم يؤمنوا بموسىٰ ولا برسالته؛ بل اتّبعوا أمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد؛ بل هو ضلال وغواية، وعناد وانحراف.

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ
ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ
ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ
مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ
أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ
ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾
وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ
إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى
ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾
* وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

[٩٨] ثم أخبر جل وعلا أن فرعون يتقدم قومه يوم القيامة إلىٰ النار فيوردهم إياها، فيتبعونه كما تبعوه في الدنيا، فبئس هذا النصيب المقدر الذي قدِموا عليه.

[٩٩] ثم أخبر أنهم في هذه الدنيا ملعونون معذَّبون بالغرق، وفي البرزخ: تعرض أرواحهم علىٰ النار صباحًا و مساءً، وفي الآخرة ملعونون ومطرودون من رحمة الله، ومعذَّبون في نار جهنم؛ يلعنهم الله والملائكة والناس أجمعون، فبئس ما اجتمع لهم وما أعطوا من العذاب واللعنة في الدنيا والآخرة.

[١٠٠] واعلم يانبي الله أن ذلك الذي تقدم من خبر الأنبياء مع أقوامهم أخبرناك به تثبيتًا وتسليةً لك، ودليلًا علىٰ نبوتك ورسالتك، وتذكرة وعبرة للمعتبرين، وتلك الأقوام التي هلكت بعضها لها آثار لم تتلف ولم تذهب؛ بل هي باقية للعظة والعبرة، وبعضها ذهب وانمحىٰ وهو الحصيد.

[١٠١] واعلم أيضًا أننا ما ظلمناهم لمَّا أخذناهم بالعذاب والنكال؛ بل هم ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، واتخاذهم آلهة من دون الله، فما نفعتهم هذه الآلهة، ولا دفعت عنهم العذاب لمّا حلّ بهم؛ بل زادتهم خسارة علىٰ خسارتهم، وهلاكًا علىٰ هلاكهم.

[١٠٢] وكذلك يانبي الله كما أخذ ربك هذه القرىٰ وأهلكها بالعذاب بسبب كفرهم وشركهم وظلمهم؛ سيكون هذا جزاء كل من حذا حذوهم، ونحا نحوهم، وإن أخذ ربك بالعقوبة للظالمين وإهلاكهم لشديد مؤلم موجع.

[١٠٣] واعلموا أن في ما مضىٰ من أخذ الأقوام الكافرين بالعذاب الشديد لعبرة وموعظةً لمن يعتبر ويتعظ، ويخاف عذاب الله وعقابه يوم القيامة، ذلك اليوم الذي تُجمع فيه الخلائق كلها ثم يجازيهم الله علىٰ أعمالهم، وذلك يوم سوف يشهده أهل المحشر كلهم.

[١٠٤] ثم أخبر سبحانه أن هذا اليوم لا يؤخر مجيئه إلا لوقت محدود حدده الله وقضاه.

[١٠٥] وعندما يأتي يوم القيامة فإن الناس لا يتكلمون من شدة الأهوال إلا بإذن الله، وقد انقسموا إلىٰ فريقين، فريق الأشقياء الذين استحقوا النار، وفريق السعداء الذين آمنوا واتّبعوا ما جاءت به رسلهم.

[١٠٦] ثم أخبر جل وعلا أن أهل الشقاوة يدخلون النار ويعذَّبون فيها أشدَّ العذاب، ومن ذلك أنهم يُدخلون النَّفَس ويخرجونه بشدّة وصوت عالٍ.

[١٠٧] ثم أخبر سبحانه أن الكفار ماكثون في النار ما دامت السماوات والأرض، لا ينقطع عنهم العذاب ولا ينتهي؛ إلَّا إذا شاء ربك أن يُخرج أحدًا من عصاة الموحدين بعد أن يطهرهم الله من ذنوبهم، وإن ربك يانبي الله يفعل ما يشاء كما شاء إذا شاء.

والاستثناء المذكور بالنسبة لأهل النار في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾، مع قوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ:٢٣]، قالوا: إن الأحقاب لها نهاية، وأن الكفار بعد أن يمكثوا في النار أحقابًا عديدة وأزمنة مديدة فبإذن الله يموت من فيها وتفنىٰ، وهذا القول يعارض ما صح عن النبي ﷺ بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة ويدخل أهل النار النار؛ فيُؤتى بالموت علىٰ صورة كبش فيذبح، ثم يقال لأهل الجنة وأهل النار: خلود فلا موت، مع آيات كثيرة تذكر الخلود الأبدي لأهل النار.

وقد نُسب إلىٰ ابن تيمية وابن القيم أنهما قالا: بفناء النار، وقد سُئل الشيخ ابن باز عن صحة ما نسب إليهما فنفىٰ أن يقولا بفنائها، وقال: إنهما استعرضا القول وقالا: إن رحمة الله لا حدود لها. وقدرة الله نافذة، ولكن مذهب أهل السنة والجماعة أن النار لا تفنىٰ وأن الكفار مخلدون فيها.

ومع أنني مع أهل السنة وجمهور المسلمين الذين يرون خلود أهل النار فيها فقد استعرضت بعض حجج القائلين بفنائها وموت من فيها؛ لأن قولهم له وجهة من النظر؛ ولأن الله قال: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، وقال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]؛ ولأن رحمة الله عظيمة؛ ولأن الذي جعل الموت بصورة كبش ثم ذبحه قادر علىٰ إحيائه، كما أنه قادر علىٰ كل شيء؛ فسبحان من لا حدود لقدرته، ولا أحد يحجب رحمته.

[١٠٨] وأما أهل السعادة الحقّة الذين استجابوا لله ولرسوله ﷺ فيدخلون الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا إذا شاء ربك؛ عطاءً سرمديًّا غير منقطع عنهم ولا ممنوع، وأن بقاءهم هو بإبقاء الله لهم.

قال الشيخ عبدالله البسام: والاستثناء المذكور بالنسبة لأهل الجنة في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هو خاص بالعصاة الذين يدخلون النار، فهم ماكثون في النار حتىٰ يُطهَّروا، وبعد أن تتم مشيئة الله بتطهيرهم يدخلون الجنة، فهم خالدون في الجنة بعد ذلك أبدًا؛ إلا المدة التي تم تطهيرهم فيها. وأما الخلود الأبدي الذي لا استثناء فيه فهو لمن يدخل الجنة برحمة الله ابتداءً، ولمن يدخل النار كافرًا.

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ
﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ
﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ
لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ
لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ
عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا
كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

[١٠٩] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: فلا تك يا نبي الله في شكّ من بطلان عبادة هؤلاء المشركين لأصنامهم من دون الله، فليس لهم دليل عقلي ولا نقلي، وغاية أمرهم أنهم يقلدون آباءهم وأجدادهم في عبادة غير الله، وإنا يانبي الله لمعطوهم نصيبهم مما كتبنا لهم من الدنيا كاملًا، وموفونهم ومجازينهم علىٰ أعمالهم في الأخرىٰ.

[١١٠] يخبر جل وعلا أنه أعطىٰ موسىٰ عليه السلام التوراة وأنزلها عليه، فاختلف بنو إسرائيل في قبولها؛ فمنهم من آمن بها ومنهم من كفر، والذين آمنوا بها اختلفوا فيما بينهم أيضًا اختلافًا مذمومًا، ولولا قضاء الله وحكمه السابق بتأخير الجزاء علىٰ الأعمال إلىٰ يوم القيامة لقضىٰ بينهم بتعذيب وهلاك الظالمين، وفوز ونجاة المؤمنين، واعلم يانبي الله أن المتجاوزين لحدودهم من اليهود والمشركين في شكّ وحيرة واضطراب من هذا القرآن.

[١١١] واعلم يانبي الله أن الله سيجازي كل عامل بما عمل؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، والله جل وعلا خبير خبرة تامّة بأعمال الجميع، ولا يخفىٰ عليه منها شيء سبحانه.

[١١٢] يأمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يستقيم علىٰ دين الله كما أمره ربه هو ومن تاب معه من الذين آمنوا علىٰ الحق، ولا يتجاوزوا ما حدده الله تعالىٰ، واعلموا أن الله مراقب لأعمالكم كلِّها لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وسيجازيكم عليها.

[١١٣] ينهىٰ جل وعلا أتباع النبي ﷺ من المؤمنين عن الركون والميل للظالمين؛ فإنهم إن مالوا إليهم وركنوا لهم؛ فإنهم بذلك يكونون قد وافقوهم علىٰ ظلمهم أو رضوا به، ويكونون بذلك قد حسَّنوا طريقتهم وزينوها للناس، وحينها يكونون مثلهم ويلقون مثل جزائهم فتمسهم النار، ثم يأتي التهديد والوعيد لمن هذه حاله، بأنه ليس له من الله وليٌّ يمنعه من عذاب الله، ولا ناصر ينقذه من مسِّ النار، ويدفع عنه العذاب؛ فليحذر كل مائل للظالمين من هذا المصير.

[١١٤] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ، ويدخل في هذا الأمر أمته بأن يقيم الصلاة ويؤديها علىٰ الوجه المطلوب طرفي النهار، أي: أوله وآخره، ويشمل ذلك صلاة الفجر والظهر والعصر، وأن يقيمها أيضًا زلفًا من الليل، ويشمل ذلك صلاتي المغرب والعشاء، ويدخل فيه قيام الليل، واعلم أن الحسنات - ومن أعظمها: أداء الصلوات الخمس - تُذهِب السيئات من الصغائر وتمحوها، واعلم أن الاستقامة علىٰ أمر الله كما أمر، وترك مجاوزة الحد، وعدم الميل والركون للظالمين، وأداء الصلوات علىٰ الوجه المطلوب؛ اعلم أن ذلك كله ذكرىٰ للذاكرين، وموعظة للمتعظين، وهداية للمتقين.

[١١٥] أمر جل وعلا نبيه ﷺ بالصبر؛ لأن المأمورات لا بدّ من الصبر علىٰ فعلها، والمنهيات لا بد من الصبر علىٰ تركها، واعلم أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ولا يخيب من امتثل أمره وانتهىٰ عن نهيه، واسْتَقَامَ كما أُمر؛ بل يجازيه علىٰ ذلك أحسن الجزاء وأوفاه.

[١١٦] فلما كان من الأمم الهالكة أصحاب أولوا بقية من دين وعقل؛ ينهون أقوامهم عن الفساد في الأرض بالشرك وتكذيب الأنبياء؟! لم يوجد من هؤلاء إلا القليل، وقد نجَّاهم الله من العذاب، أما الذين ظلموا فإنهم اتّبعوا أهواءَهم وشهواتهم، وغرقوا في نعيم الدنيا الزائل وآثروها علىٰ الآخرة؛ فكانوا بذلك مجرمين؛ فاستحقوا الهلاك والعذاب.

[١١٧] يخبر جل وعلا رسوله ﷺ أنه لا يُهلك القرىٰ والأمم بظلم منه لهم حاشاه سبحانه، ولم يكن الله ليهلكهم وفيهم مصلحون قائمون علىٰ الإصلاح في الأرض، مستمرون عليه، ولكن الناس يظلمون أنفسهم بالشرك والفساد في الأرض؛ فيستحقون عذابه وغضبه.